

## الأزهر فى العصر الأيوبى (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ / ١١٧١ - ١٢٥٠ م)

عاش الأزهر جنباً إلى جنب مع دار الحكمة فى ظلال العصر الفاطمى ، وكانت دار الحكمة حقاً منافساً شديداً الوطأة عليه ، لكنه صمد وظل الجامع الرسمى للدولة ، والجامعة التى استقرت فيها الدراسات الدينية المذهبية واللغوية والأدبية ، إلى أن قضت الدولة الفاطمية فى الثالث من المحرم سنة ٥٦٧ هـ الموافق السادس من سبتمبر سنة ١١٧١ م ، بعد أن ازدهرت فى عصرها حضارة من أعظم حضارات مصر زهاء قرنين من الزمان .

وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب رجلاً من الرجال المقدمين فى مصر آنذاك : كان وزيراً للخليفة الفاطمى العاضد لدين الله أبى محمد عبد الله ، وفى نفس الوقت نائباً للسلطان السنى نور الدين محمود ، وقائداً لقواته ، وكانت هذه فى الحقيقة مفارقة جادة ! !

كان واضحاً أن الدولة الفاطمية تعاني سكرات الموت وتغالبيها ، وتلقى صلاح الدين أمراً من السلطان نور الدين محمود بالألا يذكر اسم الخليفة الفاطمى فى خطبة الجمعة ، بل يذكر بدلاً منه الخليفة العباسى المستضىء بنور الله ، وصدع صلاح الدين بما أمر به فى مطلع شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ ، وكانت هذه هى النهاية الرسمية للدولة الفاطمية فى مصر ، التى كان فيها الأزهر ملء السمع والبصر والفؤاد جميعاً .

وأسس صلاح الدين دولته السنية بعد أن خاض غمار أخطار جمة فى الداخل والخارج واستطاع أن ينال من الخليفة العباسى لقب سلطان فى

سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م. وكان نصب أعين الدولة السنية أن تقضى على المذهب الشيعي قضاءً، وأن تستأصل شأفته، وتهدم معاقله، وأوغنت في لدد الخصومة للمذهب الشيعي إيغالاً بعيد المدى، وانطلق صلاح الدين، وكان شافعياً متحمساً في تنفيذ هذا الهدف دون هوادة أو كلل أو ملل، فأبطل عبارة «حى على خير العمل»، التي يميز بها الأذان عند الشيعة، وعزل قضاة الشيعة، وولى القاضي الشافعي صدر الدين عبد الملك بن درباس، وينوب عنه في أرجاء مصر قضاة شافعية.

وكان هذا الإجراء توطئة لهدف صلاح الدين الواضح الجلي: النيل من الأزهر، الرمز الباقي من الدولة الفاطمية! ذلك أن قاضي القضاة أفتى بأنه لا يجوز في ضوء المذهب الشافعي أن تقام صلاة الجمعة في مسجدين بمدينة واحدة، فأبطل الصلاة بالجامع الأزهر، على أن تقام بالجامع الحاكمي، وهو جامع له الطابع الشيعي كذلك، لكن ابن درباس أدرك أن هذا الجامع لا يمكنه أن يطاول الجامع الأزهر، الذي ارتبط في أذهان الناس بالدولة الفاطمية، فهو مسجدتها الرسمي، منذ إنشائه، الذي تقام فيه معظم الصلوات التي يحضرها الخليفة الفاطمي، وتقام فيه الاحتفالات بالأعياد والمولد النبوي الشريف. والهدف سياسي، لا تفسير آخر له! واقترن بإلغاء صلاة الجمعة بالجامع الأزهر، الذي تعرض بناؤه للتصدع بعد أن استطلت مدة تعطيل صلاة الجمعة فيه زهاء ثمان وتسعين سنة، إجراء آخر لا يقل تعسفاً أو افتئاتاً: ذلك أن صلاح الدين قد قطع عن الأزهر كثيراً من الأوقاف التي كان يحاكم بأمر الله وسواه من الخلفاء الفاطميين قد حبسوها عليه. وما برح بعض الناس أن اغتصبوا بقية من بواقي هذه الأوقاف، ولم تحرك الدولة الأيوبية ساكناً! بل لعليها أن تكون قد اضمأنت إلى هذا التصرف الغوغائي ورحبت

به، فلم تكن السياسة الأيوبية فى لحمتها وسداها إلا مستهدفة موتاً بطيئاً  
للأزهر الشريف: الرمز الفاطمى الخالد!

ولم يكن هذا كافياً من وجهة نظر الأيوبيين لطمس أهمية الأزهر- جامعا-  
والنييل منه والتنفص له، ولكن كان هناك الشق الآخر الموجه ضد الأزهر-  
جامعة- كما يقول الدكتور عبد العزيز الشناوى فى كتابه: «الأزهر جامعا  
وجامعة». وكانت الدراسات الدينية المذهبية فى الأزهر، ومنها الفقه الشيعى  
على مذهب الإمامة الإسماعيلية، وما يتصل به من علوم، قد ألغيت تماماً  
بمجرد سقوط الدولة الفاطمية، واتخاذ مصر الرسمية للمذهب السنى. هذه  
الدراسات الدينية التى كانت مقدمة على الدراسات اللغوية والأدبية، وكانت  
دار الحكمة قد أحنى عليها الزمان، فبدأ صلاح الدين فى إنشاء مجموعة من  
المدارس أو الكليات تقوم بتدريس المذاهب السنية ونشرها على مستوى رفيع،  
وأنفق عليها من بيت المال. وكان يقوم بالتدريس فى هذه اندارس نخبة من  
كبار الأساتذة المتخصصين، تعاونهم هيئات تدريس ومجموعات من المعيدىن.  
ولم تكن هذه المدارس من بنات أفكار صلاح الدين، لكنها كانت فكرة مقتبسة  
من السلطان نور الدين الذى قام بإنشاء الكليات السنية ذات المذهب الحنفى  
فى دمشق وسواها من مدن الشام. والحق إن السلطان نور الدين نفسه كان  
ينحو نحو السلطان ملكشاه السلجوقى الذى ابتنى له وزيره نظام الملك-  
صاحب عمر بن الخيام- المدرسة النظامية فى بغداد. وإذا كانت هذه المدارس  
التى أنشأها صلاح الدين قد اجتذبت مجموعة من كبار رجال العلم فى أنحاء  
العالم العربى، فقد أصابت فى الحقيقة الأزهر- كجامعة- بما يشبه الشلل.  
والحق أن صلاح الدين قد شرع فى تنفيذ هذا المخطط الثنائى لضرب  
الأزهر- جامعا وجامعة- قبيل أن يقطع الخطبة بالأزهر للخليفة الفاطمى،

ويقيمها للخليفة العباسي، بناءً على أمر السلطان نور الدين الذي كان شديد الكراهة لمذهب الشيعة، بعد أن آثر التمهّل والتريث، وكتب إلى نور الدين بالخوف من وثوب المصريين عليه ليلهم المعروف إلى العلوية. ولم يقدّم بما قام به إلا بعد أن تثبت من تهالك الخلافة الفاطمية في مصر، وأنه لم يبق للفاطميين منعة هنا فقط لم يتردد في تنفيذ ما عقد عليه العزم وصحت عليه إرادته.

وفي الحق فإن صلاح الدين قد واجه ثورتين عارمتين. كانت أولاهما أشد خطراً، لأن مخططيها استعانوا بقوى خارجية إسلامية وصليبية. وقد كشفها صلاح الدين قبيل تنفيذها وصلب زعماءها سنة ٥٦٩هـ، وكان منهم القاضي العوريس داعي الدعاة الشيعي، والشاعر المعروف عمارة بن أبي الحسن اليمني، وكان قد قدم مصر سنة ٥٥٠هـ على عهد الخليفة الفاطمي الفائز، ووزيره الأديب طلّاح بن رزيك، فغمره بإحسانهما، وظل موضع عطف الخلفاء الفاطميين. وله قصيدة سائرة في رثاء الدولة الفاطمية يقول فيها:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل	وجيده بعد حَلَى الحسن بالعطل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل	شقيت، مهلاً. أما تمشى على مهل؟
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة	على فجيعتنا في أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلائفها	من المكارم ما أربى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن	كمالها أنها جاءت ولم أسل
أبكى على ما تراءت من مكارمكم	حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم	واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم	تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست	ورث منها جديد عندهم وبلى

وموسم كان فى كسر الخليج لكم يأتى تجملكم فيه على الجمل وأول العام والعيدان كم لكمو فيهن من وبل جود ليس بالوشل والأرض تهتز فى عيد الغدير بما يهتز ما بين قصريكم من الأسل أما الثورة الثانية فقد اشتعل أوارها فى أسوان، هاجمت قواتها مدينة قوص، وقضى عليها صلاح الدين فى سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م.

وكانت الكليات التى أنشأها الأيوبيون ذات كثرة كثيرة، واستمرت فى الزيادة على عهد المماليك البحرية، فهم قد حاكوا سلاطين الدولة الأيوبية فى إنشاء الكليات لمحاربة المذهب الشيعى، الذى ظل كثير من آثاره باقياً، على الرغم من كل الجهود التى بذلها صلاح الدين ومن تبعه من الأيوبيين فى محاربه، كما توسع المماليك البحرية فى إنشاء الكليات تقريباً إلى الله، وذلك بجعلهم الدراسات السنوية فى موقع الصدارة من المقررات الدراسية. كما أخذت هذه الكليات أو المدارس على عهد الأيوبيين بنظام التخصص، حتى لا تكون فى مستوى علمى يقل عن مستوى الدراسة فى جامعة الأزهر. ونعنى بنظام التخصص هنا أن كل كلية كانت تقوم - غالباً - على تدريس مذهب معين من المذاهب السنوية الأربعة، لكن أغلبها كان متخصصاً فى دراسة المذهب الشافعى، المذهب الرسمى للدولة.

كانت أول كلية أنشأها الناصر صلاح الدين هى المدرسة الناصرية لتدريس الفقه الشافعى؛ أقام بناءها على مقربة من المسجد العتيق بالفسطاط، وما لبثت هذه الكلية أن اشتهرت باسم مدرسة ابن زين التجار، وهو العباس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقى، أحد أعيان الشافعية، وكان أول من تولى التدريس فيها، ولبث فيها سنين عددا، ثم أصبحت تعرف من بعد باسم المدرسة الشريفة. نسبة إلى الشريف قاضى العسكر شمس الدين

أبى عبد الله محمد بن الحسين بن محمد. وإلى جانب المسجد العتيق ابنتى صلاح الدين المدرسة القمحية لتدريس الفقه المالكي، وسميت بالقمحية لأنها كانت توزع على مدرسيها ومعيديها وطلبتها القمح، كانت تغله عليها ضيعة موقوفة عليها.

ونلاحظ أن صلاح الدين أنشأ المدرستين الأولى والثانية في السنة الأخيرة من عهد الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين. كما أنشأ صلاح الدين كلية ثالثة هي المدرسة السيوفية- وعرفت بهذا الاسم لأنها كانت تطل على سوق السيوفيين بالقاهرة- لتدريس الفقه الحنفي، وهي أول مدرسة وقفت على الفقه الحنفي في مصر. كما شيد صلاح الدين مدرسة رابعة إلى جوار قببة الإمام الشافعي في قرافة مصر، سماها المدرسة الناصرية بالقرافة، أو المدرسة الناصرية الصلاحية، خصصت كذلك لدراسة المذهب الشافعي، وقام بالتدريس فيها أساتذة كبار.

وتطور التعليم في المعاهد السننية فظهرت الكليات المخصصة لتدرس علم الحديث مثل الكلية الكاملية التي أنشأها ناصر الدين محمد السلطان الأيوبي الخامس، ثم جعل بعض الكليات يطور من برامجه لتدريس الفقه الحنبلي، فغدت الدراسة في هذه الكليات- أو المدارس- تشمل تدريس المذاهب الأربعة، ومثال ذلك الكلية الصالحية التي أنشأها الصالح نجم الدين أيوب سابع السلاطين الأيوبيين وآخرهم. وكان من مظاهر تطوير الدراسة في هذه الكليات إدخال بعض العلوم الجانبية في برامجها، فإلى جانب الفقه والحديث والتفسير والقراءات والمنطق والحساب أضيف النحو والبلاغة وعلم الهيئة (الفلك) والهندسة والموسيقى، وعلى مستويات متباينة حسب الحاجة إليها.

ولقى الأزهر أيضاً منافسة شديدة الوطأة في الحلقات الدراسية التي ظلت قائمة ومزدهرة في عدد من المشاهد والجوامع كمشهد الإمام الحسين، ومشهد السيدة نفيسة وضريح الإمام الشافعي، وجامع عمرو بن العاص، وجامع ابن طولون، وجامع الحاكم بأمر الله.

وكننتيجة لهذه السياسة الأيوبية انكشفت الدراسة بالجامعة الأزهرية فهجرها كثير من طلابها، بعد أن هجرها أغلب شيوخها إلى تلك الكليات، فقد اجتذبتهم الرواتب المغرية والمكافآت السخية، التي أغدقها عليهم سلاطين الدولة الأيوبية، بل لقد تنافس شيوخ الأزهر على الظفر بالتدريس بهذه الكليات!

وعلى الرغم من كل هذا، فقد ظل الأزهر العريق قبلة كبار العلماء الذين وفدوا إلى مصر خلال العصر الأيوبي، وما بعده، أعانه على ذلك أنه ظل مفتوحاً للطلاب من كل مذهب سني، على النقيض من أغلب تلك المدارس التي آثرت التخصص في مذهب واحد أو مذهبين على أقصى تقدير، فظل مجال الدراسة فيه رحباً متنوعاً، وظل الأزهر مقصد الطلاب الغرباء من كل صوب، وكان يقطن بأروقته عدد كبير منهم، بلغت عدتهم في أوائل القرن الثامن- على قول المقرئى- ٧٥٠ طالباً.

كما لبث الأزهر مقصد كبار العلماء من طبقة عبد اللطيف البغدادي الذي قدم مصر سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م على عهد السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان صلاح الدين. وقام البغدادي على تدريس المنطق والبيان في الأزهر بضع سنين، حتى قضى السلطان الملك العزيز سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م. كما شهد الأزهر نشاط جمهرة من أعلام العصر في طليعتهم العلامة الشاعر الصوفي المصري الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض، الذي أقام رحا

بالجامع الأزهر، وعقد فيه حلقاته الصوفية والروحانية إلى أن جاز إلى ربه سنة ٦٣٢هـ / ١٢٣٤ - ١٢٣٥م. والشيخ جمال الدين الأسيوطي، والشيخ أبو القاسم المنفلوطي، والشيخ شهاب الدين السهروردي، والمؤرخ شمس الدين بن خلكان صاحب «وفيات الأعيان»، الذي قدم القاهرة سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م. فلبث حيناً من الدهر يلقي دروسه بالجامع الأزهر.

ومن أبرز علماء الأزهر في العصرين الأيوبي والمملوكي الشيخ العز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء، الذي كانت له صفحات مجيدة تلقاء الحكام، مثل معارضته ولاية شجرة الدر، من منطلق أن الولاية لا يصح أن تكون لامرأة. كذلك عارض السلطان نجم الدين أيوب في تأميره الأرقاء الأتراك على البلاد، فأصدر فتوى ببيع هؤلاء الأمراء الأرقاء، وصرف أثمانهم في وجوه الخير في حالة السلم، وفي التعبئة في حالة الحرب، ولم يثن الشيخ تهديد أو وعيد.

وإن كثيراً من الشعراء اللامعين في هذا العصر كابن سناء الملك، وابن النبيه وابن الساعاتي، وابن مطروح كانوا كانوا ثمرات ثقافة الأزهر اللغوية والأدبية. وهكذا ظل الأزهر نابضاً بالحياة، يمشى مستأنياً في تودة، لكن في ثقة وثبات، وبقي من هذه المدارس كقول الشاعر:

كالبحر يمحطه السحاب ومائه فضل عليه لأنه من مائه

